آثار المجتمع في اللغة

1 – اللغة والجنس :

كتبت بعض البحوث في (علم اللغة العام) عن العلاقة بين اللغة والجنس ، فرأى بعض الباحثين أن اللغة تختلف من حيث بنيتها ونظمها ، ومجاراتها للحياة والأحداث ، باختلاف المتكلمين بها ، من الشعوب ، حسب طبيعتهم الجسمية ، فلغات مجعدي الشعر تختلف عن لغات ملس الشعر[1] ولغات مستطيلي الرؤوس غير لغات مستديري الرؤوس[2] .

وقد استغل هذه النظرية أصحاب المذاهب السياسية ، ودعاة الاستعمار والغزو فتحدثوا عن طبيعة اللغات ، وفرقوا بين اللغات الهندية الأوربية واللغات السامية والحامية ، وادعى الغزاة – وهم من أرباب اللغات الأولى كالألمان ، والطليان – أنهم شعوب راقية ، وأن متحدثي اللغات الأخرى شعوب متخلفة ، ينبغي أن يخضعوا لسيطرة الأرقى .

وارتبط بذلك الحديث عن طبيعة اللغات المتخلفة ، فهي تعجز عن التعبير عن المعاني الكلية ، وينعقد فيها النظم ، وتفتقد منها الحيوية ، وهي لغات قاصرة عن التعبير عن متطلبات الحياة الراقية ، والأحداث العصرية ، ولا يمكن لها في أي وقت أن تتطور إلى الحد الذي وصلت إليه اللغات الأوربية الراقية .

وقد سرى الاعتقاد – كذلك – بين بعض الباحثين بأن اللغات ترتبط بعقلية أصحابها ، فاللغات الراقية ترتبط بعقليات الأمم الراقية ، والعكس صحيح .

فيرى العالم اللغوي الألماني ف . ن فنك F.N. Finck انه لا يجب علينا أن ننظر إلى اللغات الا بوصفها آثارا معبرة عن عقل الشعوب ، وأن اللغات ليست إلا تصويرات لا تقدم أمام عين العالم السيكولوجي أية حقيقة واقعية ملموسة ، وأن من الخداع لأنفسنا أن ندرسها على أنها حقائق واقعة ، فيجب أن نطبق عليها طريقة ذاتية محضة ، بألا نبدأ من اللغة التي ليست إلا نتيجة ، بل من العقل الذي يخلق اللغة[3] .

وقالوا : ان وجود الأقسام الاسمية تشير إلى عقلية (بدائية) كما في لغات البانتو[4] .

والحقيقة أن ربط اللغة بالجنس ، وبالعقلية ، تحتم لا مسوغ له ، فليس في لون العينين ، أو البشرة ، أو شكل الجمجمة أي دليل على شكل أو طبيعة اللغة ، وحتى في حال المقارنة بين الزنجي والأبيض لا نجد أي دليل على أن لون البشرة أو شكل الشفتين يقابله دماغ خاص ينتج تفكيرا مختلفا عن تفكيرنا[5] .

وعلماء الانثروبولوجيا يمكنهم عند العثور على جماجم آدمية أن يحددوا أنواعها ، المستطيل منها والمستدير ، ولكن لا يمكنهم معرفة لغات أصحابها[6] لأن وجود الجمجمة بين أيدينا لا يستطيع بحال أن يعرفنا شيئا عن

(1) فندريس : اللغة ص 297 .
(2) د. السعران : اللغة والمجتمع ص 65 .
(3) فندريس : اللغة ص 299 .
(4) د. السعران : اللغة والمجتمع ص 14 .
(5) فندريس : اللغة ص 298 .
(6) د. السعران : اللغة والمجتمع ص 68 .

أنواع الترابط بين الكلمات والأفكار ، التي كانت تتكون فيها ، ولا عن الصور الكلامية التي كانت تنشأ في مراكزها المخية[7] .

ولا نستطيع أن نقول بوجود روابط ضرورية بين هاتين الفكرتين إذ لا ينبغي الخلط بين المميزات الجنسية المختلفة التي لا يمكن تحصيلها إلا بالدم وبين النظم من لغة ودين وثقافة التي تعد أعيانا قابلة للنقل ، تعار وتتبادل»[8] .

ومن التحكم أن نعتبر اللغة وليدة العقلية ، أو العقلية وليدة اللغة ، لأن كلتيهما وليدة الظروف ، ونتاج الثقافة والمدنية[9] .

ومن الصحيح أن نقول : ان للغة صلة بالعقلية ، إذ من الجائز أن تكون اللغة والعقلية نتاجا لأسباب واحدة ، وأن تكون المميزات التي تميزها واحدة ، دون أن يترتب على ذلك صدور احداهما عن الأخرى[9] .

واللغة — في بعض الأحيان — تستطيع أن تعدل من العقلية ، وتنظمها فعادة وضع العقل في مكان بعينه دائما يمكن أن تؤدي إلى صورة خاصة في التفكير وأن يكون لها أثر في طرق الاستدلال ، والتفكير الفرنسي ، أو الألماني ، أو الانجليزي خاضع للغة إلى حد ما ، فإن اللغة إذا كان مرنة خفيفة مقتصرة على الحد الأدنى من القواعد النحوية سمحت للفكرة بالظهور في وضوح تام ، وأتاحت لها حرية الحركة ، وعلى العكس من ذلك تختنق الفكرة من التضييق الذي يصيبها من لغة جامدة ثقيلة ، ولكن عقلية المتكلمين تتصرف لتعتاد أي شكل من أشكال اللغة»[10] .

ومن الثابت أن بنية أية لغة من اللغات ذات علاقة بعقلية المتكلمين بها ، وبنظمهم ، وبحضاراتهم المادية[11] .

ولكن ليس من المؤكد أن الأسباب التي تؤثر على اللغة تحدث في العقلية آثارا مماثلة[12] .

والواقع يناقض هذا الربط ويعارضه ، فخريطة أوربا اللغوية في العصر الحاضر تضم أخلاطا من الأجناس .

ومع هذا فإن فردا ينشأ لدى شعب غير شعبه يكتسب لغته ، وإذا أراد تعلم لغة شعبه الأصلي احتاج إلى مران طويل ، وتدريب شاق شأنه في ذلك شأن أي أجنبي يريد تعلمها ، فالزنجي أو الياباني الذي يربى في فرنسا في ظروف واحدة مع الأطفال الفرنسيين يتكلم الفرنسية كأحد أبنائها ، ولو أن طفلا فرنسيا تربّى في بيئة الزنجي أو الياباني لتكلم لغة البيئة التي نشأ فيها[13] .

وان بعض اللغات التي كتب لها الذيوع والانتشار لتؤكد بطلان هذا الربط فالانجليزية قد انتشرت في مساحات واسعة من الأرض في قارات كثيرة أيام سيطرة الانجليز على تلك الشعوب ، واستعمروها فتكلم كثير منها اللغة الانجليزية وأجادوها ، كأصحابها الأصليين ، وكذلك العربية بعد الفتوحات الاسلامية الواسعة قد فرضت نفسها على شعوب كثيرة ، وأجادوها كأهلها ، دون اعتبار إلى الجنس أو اللون أو العقلية لدى هذه الشعوب المختلفة .

والحديث عن اللغات المتخلفة والراقية حديث غير موضوعي ، فاللغات التي تتسم بسمات (بدائية) يمكن أن تتحول إلى راقية لو انفسح أمامها المجال ، وأتيحت لها ظروف التغير تبعا للتحولات الاجتماعية التي تمر بها الشعوب المتكلمة بها .

(7) فندريس : اللغة ص 376 .
(8) فندريس : اللغة ص 298 .
(9) فندريس : اللغة ص 298 .
(9) نفس المرجع ص 299 .
(10) نفسه ص 302 .
(11) د. السعران : اللغة والمجتمع ص 65 .
(12) فندريس : اللغة ص 300 .
(13) انظر ص 8 وما أحلنا عليه من كلام فندريس في كتابه (اللغة) .

وقد حكى بعض الباحثين ما حدث لبعض الطلبة الهنود الأمريكيين من امكان تعرفهم على المثل العليا الافلاطونية ، مع خلو لغاتهم من الأسماء العامة التي تستعمل دون (مغير)[14] .

وفي امكان اللغات القاصرة ، أو غيرها ، معالجة كافة العلوم بشرط أن تزود بالمفاهيم والمصطلحات الجديدة .

فلغات الشعوب البدائية تملك اصطلاحات ثقافية قليلة ولكنها لا تقل من حيث تكييف نفسها لكافة المجالات (الحيائية) عن لغاتنا المتحضرة .

فاللغة الأراندية لا تملك مفاهيم مثل (الجبل – التل – النهر) وعلى ذلك تكون لهجة تدريس الجغرافية أمرا صعبا جدا ، ولكن علينا ألا ننسى أن فيها أسماء لكل جبل ، وحتى لأصغر التلول .

ومن السخف التكلم عن اللغات (الأفضل) و(الأسوأ)، ان هذا شبيه بقولنا : أيهما أفضل شجرة النخيل أم شجرة الصنوبر؟ افريقيا أم أوربا ؟ .

فالناس كلهم سواسية ، بغض النظر عن الجنس والثقافة ، والعرق وبنفس الطريقة تتساوى كافة لغات المعمورة في قيمتها وحقوقها[15] .

2 – اللغة والمكان والزمان :

للمكان أثره في اللغة ، فقد لاحظ اللغويون أن لغة سكان الصحراء تختلف عن لغات سكان المناطق الأخرى من سهول ، وأراض زراعية ومدن صناعية .

فلغة الصحراويين خشنة الألفاظ ، غليظة الأصوات ، كما يتضح ذلك في لغة العرب الجاهليين ، فالعربي في الصحراء يجد أمامه الجو الهائل من الفراغ الطبيعي ، الذي يحتاج معه إلى قوة عضلية ، حتى يتضح صوته ، ويصل إلى ما يريد من أماكن قد تكون بعيدة عنه .

والبيئة التي يعيش فيها ، تشكل جسمه ، وعضلات نطقه ، بطريقة تجعلها مستعدة لاخراج مثل تلك الأصوات ، على حين أن سكان المدن يميلون إلى رقة الألفاظ ، وانخفاض الأصوات ، ويتضح ذلك من تأذي النبي ﷺ من سماع أصوات الأعراب العالية حين قدموا عليه في المدينة ، فطالبهم القرآن الكريم بعدم رفع أصواتهم (يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض)[16] .

ويكفي أن نسمع – مثلا – كلمة (افرنقعوا) – بمعنى تفرقوا – وقول بعض العرب :

خالي عويف وأبو عليج
المطعمان اللحم بالعشج[17]

وقول بعضهم (لبيش اللهم لبيش)[18] .

فهي تعبر عن صخب الأصوات البدوية ، وهكذا نجد اللهجات المتعددة ، وتنافر الأصوات إلى جانب ما في بعضها من ضعف القواعد النحوية والصرفية ، والاشتقاقية .

وخيال الصحراء محدود بتلك البيئة ، فالوسائل التي يلجأ إليها البدوي لجمال الأسلوب لن تخرج عن مجاله البيئي ، وما يوجد فيه من سماء ، وأرض ، ونبات ، وحيوان .

ويقول النابغة للنعمان بن المنذر :

فانك كالليل الذي هو مدركي
وان خلت أن المنتأى عنك واسع

ويقول له كذلك :

(14) د. السعران : اللغة والمجتمع ص 71 بتصرف .
(15) كندراتوف : أصوات واشارات ص 83 ، 84 .
(16) من سورة الحجرات الآية
(17) أبو علج : أبو علي – العشج : العشي .
(18) لبيش : لبيك .

كأنك شمس والملوك كواكب
إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

ويصف امرؤ القيس فرسه فيقول :

مكر مفر مقبل مدبر معا
كجلمود صخر حطه السيل من عل

ويقول :

فعادى عداء بين ثور ونعجة
دراكا فلم ينضح بماء فيغسل

ولكن بعد أن تحضر العرب ، وسكنوا المدن لاحظنا تغيرا في طرق التعبير ، وحسن الأصوات ، ونظام القواعد ، فقلت اللهجات ، وبرزت القرشية كلغة عامة بين العرب ، انطمس معها معظم تلك اللهجات ، وسما الخيال العربي ، وانطلق مع تقدم الأمة العربية ، على نحو يمكن معرفته ، من ملاحظة سير اللغة ، وآدابها ، في العصر الاسلامي وما تلاه ، وبخاصة في العصر العباسي ، الذي زاد فيه اتصال العرب بأمم ذوات حضارة ، واكتساب الأدباء والشعراء لكثير من ثقافات تلك الشعوب .

ومع ذلك تظهر ملامح البيئة فيها .

فابن الرومي الذي يعيش في الأحياء الشعبية التي يشاهد فيها صانع الرقاق يجعل ذلك مادة شعره في أبيات هي :

ان أنس لا أنس خبازا مررت به
يدحو الرقاقة مثل اللمح بالبصر
ما بين رؤيتها في كفه كرة
وبين رؤيتها قوراء كالقمر
الا بمقدار ما تنداح دائرة
في الماء يلقى فيه بالحجر

وحينما يسأل : هل يستطيع أن يأتي بمثل ما أتى به ابن المعتز في وصف القمر من قوله :

انظر إليه كزورق من فضة
قد اثقلته حمولة من عنبر

فيقول : ويحكم ، انما يصف ماعون بيته ...!!

وقد تميزت العربية من أخواتها الساميات ـ كالآرامية ، والعبرية ـ بانتظام القواعد وعذوبة الألفاظ ، وسهولة التراكيب ، لأنها عاشت في بيئة أكثر مدنية من اخواتها[19] .

وللزمان تأثيره في اللغة كذلك ، فالفرد يتأثر نطقه حسب مراحل سنه المختلفة كما ذكرنا[20] .

وانتقال اللغة من جيل يترك أثره في أصوات اللغة ، ومفرداتها ، ونظمها وتراكيبها .

فقد لاحظ جماعة من اللغويين أن أعضاء النطق تختلف من جيل إلى آخر ، فهي عند الأبناء ، تختلف عنها عند الآباء ، وعند الآباء تختلف عن حالها عند الأجداد وهكذا تتطور أعضاء النطق عند الجماعة الواحدة ، من عصر إلى عصر ، وان كان هذا التطور يسير ببطء لكنه يؤثر في ألفاظ اللغة ، وبخاصة في أصواتها .

ونحن نلاحظ أن بعض أصوات اللغة العربية قد تغير على لسان العرب المعاصرين سواء في ذلك لسان المثقفين بالعربية أو على المستوى الشعبي . فالجيم العربية تنطق على لسان بعض المذيعين خالية من التعطيش أو بتعطيش قليل في مصر ، وأما على المستوى الشعبي فقد خلت نهائيا من التعطيش ، على حين أن السوريين يبالغون في تعطيشها ، وقد غدت الثاء قريبة من السين ، والذال قريبة من الزاي على لسان بعض المذيعين وغيرهم من المتحدثين بالفصحى ، على حين انقلبت إليها على لسان العوام ، والصاد والسين والزاي قد اختلف نطقها في الحديث عنه في القديم ، وناهيك بالانحراف الذي يسري على ألسنة

(19) انظر : د. وافي : علم اللغة ط 4 ص 233 – 236
(20) انظر ص 13 من هذا البحث .

العوام لأصوات القاف والطاء ، والظاء والضاد وغيرها مما حدث فيه خلط أو ترقيق .

وماذا نقول عن فقدان الاعراب في العاميات ، وعن تقصير الحركات الطويلة أو حذفها ، واطالة الحركات القصيرة ، أو خلق حركات ما انزل الله بها من سلطان .

وانظر مثلا إلى قول المصريين العوام : جم ــ جه ــ بكام ؟ معاك ؟

ويمكن أن يضاف إلى ذلك ما يدخله الأدباء والعلماء من ألفاظ وتراكيب كانت قديمة فيحيونها ، أو مستحدثة يبتكرونها ، أو منقولة من اللغات الأخرى للحاجة إليها في ابراز المعنى ، أو في تسمية المستحدثات الصناعية ، أو غير ذلك من الأغراض .

3 ــ اللغة والنظم الاجتماعية :

تتأثر اللغة بالأنظمة الاجتماعية التي تكون عليها الأمة ، فتحمل سمات المجتمع في النواحي السياسية ، والاقتصادية ، والدين . فالمجتمع يطبع خواصه في هذه النواحي على لغته ، فالكلمات ، والتعبيرات تتمشى مع شكل النظام السياسي ، والاقتصادي والديني وغيرها من النظم الاجتماعية .

ففي مجال السياسة نلاحظ اختلاف نظم الأمم ، فهناك النظام الديمقراطي أو النظام الاقطاعي ، أو النظام الشيوعي ، ولكل طريقته التي تظهر في أساليب لغته ، فلغة الانتخاب ، والمراسيم الحكومية ، والمجالس النيابية تتجلى فيها طريقة النظام الذي تسير عليه الدولة .

وعندما يتغير الشكل السياسي تتأثر اللغة به ، فلو درسنا الألفاظ المستعملة في مجال السياسة الطبقية قبل الثورة ، وما استعمل بعد الثورة لوجدنا اختلافا واضحا ، في كل من الفترتين ، فالنظرة إلى الفرد قد اختلفت وأخذ لفظ (السيد) مفهوما جديدا في الاستعمال .

ونلاحظ في أسلوب المعاهدات والمعاملات بين الدول طابع الصورة التي تكون عليها تلك الشعوب ، من النواحي السياسية ، فترد عبارات : (العالم الحر) ــ (عدم الانحياز) ــ (التحالف) ــ (الصداقة) ــ (المودة) وتفسر في ظل المفاهيم السياسية التي تراها الدول التي يجري بينها التعامل .

وقد نشأ عن هذا تغيير مدلولات كثير من الألفاظ والتراكيب ولو درست معانيها في القديم والحديث ــ لاكتشفت فروق هائلة بين المراد قديما ، وحديثا حسب مصطلحات العصر ، وربما أتاح هذا مادة خصبة لمعجمات تضم معاني جديدة لم تعرفها العربية من قبل .

ولنراجع معاهدة العبارات : (الظلم الاجتماعي) ــ (سيطرة الاقطاع) ــ (الخلية الثورية) ــ (الدفع الثوري) ــ (الحوافز الثورية للجماهير) ــ (الدكتاتورية الطبقية) ــ (دموية الصراع الطبقي) ــ (نضال الشعب) الخ .

وللحياة الاقتصادية طرائقها ، ونظمها التي تتخذ من اللغة أداة فعالة لها ، توجهها كما تشاء في الأصوات والمفردات .

فالنواحي الاقتصادية كثيرة ، ومتشعبة ، والتعامل بين الأمم له وسائله ، ودعاياته والتعامل بين أفراد الأمة ، وجماعاتها له وسائله ودعاياته أيضا .

فأسلوب البيع والشراء له مسالكه التي يلجأ إليها كل من البائع والمشتري وطرق عرض السلع ، والاعلان عنها يأخذ أساليب شتّى ، وأسواق البيع والشراء تحوي دهاء البائع والمشتري ، ولذا تبدو في المجال اللغوي للبيع والشراء اصطلاحات ، وألفاظ وطرائق لغوية تتميز بها جماعات التجار على تعدد أنواعهم وسلعهم .

ونشاط أصحاب الحرف زراعية وصناعية وتجارية يرتبط بالمفاهيم اللغوية الجديدة التي تتمشّى مع وصفهم في المجتمع ، فأساليب الزراع ، والصناع ، والتجار تجري حسب ميولهم ، وأهوائهم ، ومصالحهم ، وترتبط بالأوضاع الجديدة التي تعرض لهم .

ويكفي أن نعرف أن العمل ، والعمال زراعيين وصناعيين أصبح لهم بعد الثورة شرف الانتساب إلى

أعمالهم ، وتحولت معاني الكلمات (العمل — العامل — الفلاح) من الصفة التي كانت تلاحقها في الماضي بسخرية واستهزاء إلى شرف المعنى واحترامه[21] .

وللدين كذلك أثره الفعال في اللغة ، فالمجتمع في طقوسه الدينية ، ومشاعره يسلك مسلكا لغويا ذا طابع خاص ، ولغة الدين لها ألفاظها ، وتراكيبها ، وطرائقها التعبيرية ، ولننظر إلى ألفاظ الأذان ، والصلاة ، والخطب الدينية ، وطرائق المدائح النبوية ، وأساليب القرآن الكريم الذي يلجأ إلى طرق خاصة في الاقناع والتوجيه ، ولا ريب أن أداء هذه المراسيم الدينية ، وقراءة النصوص ، والأدعية المأثورة لها نظمها الصوتية ، التي تحرك المشاعر ، والوجدان .

وهناك تعبيرات شائعة لدى الناس يستمدونها من ايمانهم بخالقهم ، ويحيطونها بهالات الإكبار الذي ينبعث من الاحساس الديني كأساليب القسم وتعويذ الأطفال بآيات الكتاب الكريم ، والأساليب الشعبية المستمدة من الدين مثل (اسم الله عليك — باسم النبي حرسك) .

ولو تتبع الباحث اللغوي تاريخ الألفاظ ، والتعبيرات الدينية المأثورة قديما حتى العصر الحديث ، لأمكنه أن يقف على تاريخ التطور اللغوي الذي ينبعث من مشاعر دينية ، لاسيما ونحن نعلم أثر الدين في النفوس .

ولو درس الأسلوب القرآني دراسة فاحصة ، لأمكن ادراك كثير من الاتجاهات ، والمسالك اللغوية التي ينتحيها .

ونلمس في لغة الأساليب الدينية ، ميلا إلى الايقاعات الصوتية كالسجع ، والفواصل وتتابع الأصوات ، وتنغيم الكلام .

ولو تركنا الدين الإسلامي إلى غيره من الأديان الأخرى لوجدنا الطقوس الدينية التي تسلك مسالكها ، فلاتزال الكنيسة تستخدم التعابير القبطية التي يرددها بعضهم دون فهم[22] .

ولاشك أن كتابات المسيحيين باللغة العربية تحول الأساليب ، ومفهوم الألفاظ العربية ، حسب الاتجاهات التي يلجأون إليها ، فلهم عرفهم في الاستعمالات اللغوية ويمكن ملاحظة ذلك من أساليب كتاباتهم الدينية ، وذلك أيضا يغير من ألفاظ اللغة ، وتراكيبها ومفاهيمها فيخضعها لما يريدون .

4 — اللغة والطبقات الاجتماعية :

يضم كل مجتمع عناصر بشرية مختلفة ، تعيش في المدن ، والقرى ، وفيها الزراع والصناع والارستقراطيون ، والفقراء ومتوسطو الحال وفيها الآمرون والعلماء والمثقفون ، كالطبيب والمهندس والمدرس ، وعالم الدين ، ورجل القانون ، والأديب وغيرهم .

ولكل من هذه الطوائف خصائصها ، في نشأتها ، وطريقة حياتها ، وعاداتها وتقاليدها ، ومستواها الاجتماعي ، ولذا تستخدم اللغة استخداما مستمدا من البيئة والأعمال التي تزاولها .

وتعرف هذه اللهجات ذوات الطوابع المتميزة بـ(اللهجات الطائفية) أو (الطبقية) أو (الاجتماعية) ، كما يسميها علماء اللغة[23] .

فالمشتغلون بالزراعة لهم لهجتهم الخاصة ، المستمدة من بيئتهم وعملهم ، وما يتصل به من آلات ، وأدوات .

ففي (اللتوائية) — وهي لغة شعب زراعي — خمس كلمات للدلالة على اللون الأشهب ، ولكن هذه الكلمات ليست من المترادفات لأن كلا منها تقال عن شيء خاص. بالأوز والخيل والبقر والحيوان الداجن مما عدا ما سبق

(21) د. السعران : اللغة والمجتمع ص 74 — 94 بتفصيل أكثر.
(22) فندريس : اللغة 314 ، 315 .
(23) د. السعران : اللغة والمجتمع ص 60 ، د. وافي : اللغة والمجتمع ص 148 .

وشعر الانسان ـ وفيها دلالة على (المبقع) أو (الأبلق) عدد من الكلمات بقدر ما يوجد فيها من الفصائل الحيوانية ، وهذا يستلزم قوما اخصائيين في تربية الحيوان[24] .

وللزراع ـ في مصر ـ لهجاتهم الخاصة التي تختلف باختلاف المناطق التي يعيشون فيها .

ويبدو ذلك في مظاهر حياتهم ، وسلوكهم اللغوي ، ولعل في هذا المثل المستمد من بيئتهم ما يؤكد هذه الحقيقة ، ففي بعض المناطق يقولون : (أردب ما هو لك ما تحضر كيله تتعفر دقنك ويلزمك شيله) .

ولكل حرفة أو صناعة ألفاظها الخاصة ، فللحدادين ، والنجارين ، والبحارة وغيرهم من الصناع وذوي الحرف لهجات متنوعة في كلماتها ، وعباراتها .

وتشتمل لهجات هؤلاء وأولئك على ألفاظ من اللغة العامة ، أو من لغات قديمة أو أجنبية .

ففي مجال الزراعة تحتفظ العامية المصرية ـ من اللغة القبطية ـ بأسماء الشهور ، والمواسم الزراعية ، وأسماء بعض الآلات الزراعية ، وفي العامية العراقية كثير من الكلمات البابلية ، والأشورية ، والفارسية المتعلقة بهذه الموضوعات .

وفي مجال الصناعة كلمات متوارثة ، أو منقولة من لغات أجنبية وبخاصة ـ بعد التطور الصناعي العالمي ، وقد دخل اللغة العربية كثير من الألفاظ الانجليزية ، والايطالية والألمانية ، واليونانية ، مما يتصل بالهندسة والميكانيكا والآلات الصناعية[25] .

وللطبقات الارستقراطية ، والفقيرة ، والوسطى ، لهجاتها التي تنبئ عن مكانتها الاجتماعية ، وأوضاعها الاقتصادية ، وطرق معيشتها ونظامها الاجتماعي .

يقول فندريس ـ عن اللهجات الارستقراطية الفرنسية ـ (في كل العهود التي كونت فيها الارستقراطية طبقة مغلقة ، تحيا حياة الصالونات وتعتز بجمال اللغة أدت هذه الحال إلى نشوء مفردات نبيلة أبعدت منها كل كلمة سوقية ، وهم وان استووا في العقل مع غيرهم ظلت لهم على غيرهم من سواد الناس ميزة التعبير بعبارات خير من عباراتهم ، وجمل أشهى إلى النفس)[26] .

وللطبقات الارستقراطية في مصر لهجاتها الخاصة ، ولكنها تقوم ـ أحيانا ـ على تشويه بعض أصوات اللغة العامة ، واستعمال كلمات وتراكيب أجنبية لاعتقادها أن ذلك علامة الرقي ، والتمدن[27] .

والطبقات الفقيرة والوسطى أكثر استقرارا أو اعتدالا في استعمال اللغة .

وقد يعرض لفرد أو أكثر من الطبقات الدنيا ثراء فجائي ينقلهم إلى مستوى مادي أعلى ، فيحاولون مجاراة الطبقة الراقية ، وإذا كانوا يستطيعون ذلك في المسكن والملبس ، وغيرهما من مظاهر الحياة المادية ، فمن العسير عليهم مجاراة تلك الطبقة في لهجتها ، فإن صعوبة التقليد الكامل تجعلهم عرضة للخطأ ، وتعود بهم إلى طبقتهم الأولى[28] .

وللطبقات الخارجة على نظام المجتمع ـ كاللصوص ، والمجرمين ، والأشقياء لهجات تستخدم طرائق معينة في استعمال كلمات اللغة العامة ، بنقلها إلى معان مجازية أو استعارتها لدلالات بعيدة عن مفهومها الأصلي ، أو خلق وابتكار مفردات وعبارات جديدة ، لمفاهيم يصطلحون عليها ، وربما لجأوا إليها لاخفاء جرائمهم ، وأوضاعهم الشاذة ، «ففي أمريكا ـ مثلا ـ يسمي اللصوص

(24) فندريس : اللغة ص 286 .
(25) د. السعران : اللغة والمجتمع ص 105 ـ 108 بتصرف . وانظر : اللغة ص 283 وما بعدها .
(26) فندريس : اللغة ص 287 .
(27) انظر إلى استعمالهم : انارب مكان أرانب ـ زالم مكان ظالم ـ السبر مكان الصبر ـ مرسيه مكان شكرا ونحو ذلك .
(28) د. السعران : اللغة والمجتمع ص 50 .

(الجواهر) باسم (الجليد) والجواهر المسروقة (الجليد الساخن)»[29] .

ولذا تسمى لهجتهم بـ(اللهجة السرية) أو (الكلام السري)[30] .

وقد فطن الجاحظ إلى لهجات الطبقات الدنيا في أيامه فهو يعرض للهجة المتسولين ، والمحتالين ، ولاسيما ما جاء في كتاب البخلاء من هذا الباب كما أشار الجاحظ إلى جماعة من هذه الجماعات التي ارتضت لنفسها أن تحيا حياة خاصة ، وهم اللصوص ، وقد كتب في الموضوع رسالة أسماها كتاب اللصوص ، وجاء ذكر الكتاب في مظان عدة[31] .

ومن أمثلة تلك اللهجات الخاصة القصيدة الطويلة التي كتبها في القرن الرابع الهجري الشاعر الماجن المتسول أبو دلف الخزرجي الينبوعي مسعر بن مهلهل ، واشتهرت باسم القصيدة الساسانية ، واختار منها أبو منصور الثعالبي قدرا لابأس به وشرح المصطلحات الخاصة بالمتسولين[32] .

وللعلماء والمثقفين — على اختلاف طبقاتهم ومناحي تعليمهم — من أطباء ومهندسين ومدرسين وعلماء وكتاب ، أنواع من اللهجات تتفق مع مستواهم الثقافي والعلمي .

وتبين لهجة المتكلم نوع تعليمه ، ووسطه الثقافي ، فالقانونيون لهم لهجتهم الخاصة ، وحيثياتهم التي يبنون عليها كتاباتهم وأحكامهم[33] ومثال ذلك حالة (المحضر) وحالة (القاضي) فهذان يستعملان في تسبيب حيثياتهما أو في تحريرها لغة بعيدة جدا عن اللغة الجارية[33] . ولغة المحاكم — بعامة — من هذا القبيل فكل مصطلح فيها اتخذ له دلالة نهائية على رجال المحاكم أن يحفظوها وأن يتبعوها دون أن يغيروا شيئا منها[34] .

وللأطباء لهجة يستعملونها عندما يحررون نشرة طبية ، وللعلماء لهجة عندما يعالجون مادة علمهم .

ويسمي علماء اللغة هذه اللهجات باسم اللهجات الفنية ، ففي كل فن علمي تستخدم كلمات اللغة العادية في معنى خاص ، كما يفعل علماء الطبيعة ، حين يتكلمون عن الكتلة أو (السرعة) أو (القوة) وأحيانا تخترع كلمات خاصة .

«واللغات الفنية تدين بوجودها إلى الحاجة للدلالة على أشياء أو أفكار لا أسماء لها ، في الاستعمال الجاري ، ولكنها أيضا ترجع إلى الحاجة للدلالة (بصورة علمية) أي بمصطلح دقيق يرفع كل لبس على أشياء مما تعبر عنه اللغة العادية تعبيرا جيدا»[35] .

ولرجال الأدب من شعراء ، وقصاص لهجة ذات خصائص ، والأديب في حاجة إلى أداة شخصية يعبر بها عما يوجد في ذكائه ، وحساسيته من عناصر خاصة ، ومن أمثلة اللهجات الأدبية لغة الملحمة اليونانية وفي الهند لغات أدبية على أساس ما من اللهجات[36] .

وللصحافة لهجتها الخاصة ، فالصحف الشعبية في فرنسا (لا تكاد تكتب غير اللغة المتكلمة مصبوغة بالصبغة

(29) نفسه ص 61 .
(30) فندريس : اللغة ص 314 ، 316 ، 320 .
(31) د. حسن ظاظا : اللسان والانسان ص 112 .
(32) الثعالبي يتيمة الدهر ط 1353 هـ — 1934م ، جـ 3 ، ص 332 ، 333 .
ود. حسن ظاظا : اللسان والانسان ص 112 — 114 .
(33) فندريس : اللغة ص 314 .
(34) نفسه ص 315 .
(35) نفسه ص 315 .
(36) نفسه ص 340 .

الأدبية ان قليلا وان كثيرا) على حين أن الصحف الكبرى تستخدم اللغة التي يستعملها خير كتابنا[37] .

ومعظم الصحف والمجلات المصرية ـ الآن ـ وان اصطنعت العربية الفصحى صورة فانها تخالفها مضمونا بادخالها كثيرا من الألفاظ والتراكيب الغريبة عليها وهي ـ بذلك ـ لها لهجتها الخاصة التي تخاطب الجماهير الشعبية .

ولكل من الرجال والنساء لهجة خاصة ، في المجتمعات التي تفرق بين الجنسين ، وتعزل أحدهما عن الآخر .

وكلما ازداد البعد ، والاتصال بين الجنسين أدّى ذلك إلى وضوح الفروق بين لهجة كل منهما .

أما في المجتمعات التي تخف فيها قيود الانفصال بين الرجل والمرأة فإن اللهجة تتقارب بينهما ، ولا يكون لها مظاهر إلا في اختلاف يسير في بعض الأصوات والمفردات والتراكيب كما يشاهد في معظم مناطق مصر الحديثة .

ولهذه اللهجات الطبقية خصائص عامة ، تشترك فيها جميعا ، فهي :

ا) تشوه أصوات بعض الكلمات ، وقوانينها الصرفية ، فلكل منها اتجاه صوتي في نطق الكلمات .

فقد يقع للعامية الخاصة أن تتبع بعض عادات في النطق تساعد على تمييزها .

ومن أمثلة ذلك نطق الطبقات الريفية ، والمدنية للأفعال (قال ـ جاء ـ يقدر) فينطقها بعض الريفيين (جال ـ ايجه ـ يقدر) وفي المدن والقرى المتأثرة بها (آل ـ جه ـ بأدر) .

وهذا في الحالتين تشويه لأصوات ، وبنية بعض الكلمات .

كما أن طريقة الأداء الصوتي مختلفة بين الريف والحضر ، بشتّى الطبقات ، ـ ويمكن ـ من خلال الاتجاه الصوتي التعرف على طبقة المتكلم الاجتماعية .

«والعامية الخاصة المستعملة في الأطراف الباريسية تحتوي على بعض الخصائص الصوتية التي تكفي للتعريف بطبقة المتكلم الاجتماعية»[38] .

وفي العامية الخاصة يستطيع المتكلم بوجه خاص أن يسمح لنفسه بنطق الكلمات في صورة مختزلة ، لأنه يخاطب عددا محصورا من المتكلمين كلهم ممهد الذهن لفهمه ، وكلهم تفاهم معه ، مقدما ، ومن ثم يجيء هذا العدد الضخم من حالات الحذف ، والاسقاط ، والتبسيط ، وحذف النهايات ، هذه العوارض الصوتية التي تجعل العامية الخاصة لا يفهمها إلا العارفون[39] .

ولذلك أمثلة كثيرة فكلمة (ولد) ينطقها بعض المصريين كاملة الأصوات ، هكذا ، وبعضهم (ول) وبعضهم (واد) وعلى هذا يختلفون في ندائه (ياولد ـ ياول ـ يواد) .

وغني عن البيان أن الاختصار في استعمال أصوات الكلمات يتم اعتماده على فهم أرباب الطبقة التي منها المتكلم .

2) تستعير كلمات من اللغة العامة ، وتستعملها استعمالا مجازيا .

فالكلمات العامة (مشغل ـ عمل ـ صنعة ـ تصنيف ـ عملية) تتخذ بالضرورة معنىً خاصا في أفواه الذين يستعملونها وفقا لنوع المهنة التي تستخدم فيها هذه الألفاظ ، فظاهرة التخصص المعنوي تلك هي أساس العامية الخاصة)[40] .

(37) نفسه ص 345 ، 346 .
(38) نفسه ص 317 .
(39) نفسه ص 319 ، 320 .
(40) نفسه ص 317 ، 318 .

والاستعارات ، والنقل في العامية الخاصة تبلى بسرعة ، وتحتاج إلى كثرة التجديد ، لأن الغرض من استعمالها هو توسيع شقة الخلاف التي تفصل بين العامية الخاصة ، واللغة المشتركة ، والمحافظة على بقاء هذا الخلاف ، فلا يدهشنا إذا أن تستهلك العامية الخاصة من الاستعارات أكثر مما تستهلك أية لغة أخرى»[41] .

3) تستمد كلمات من لغات أجنبية ، والمراد بالأجنبية كل ما ليس من اللغة المشتركة فيدخل في ذلك ما تنقله من اللهجات الخاصة الأخرى ، ومن كل اللهجات المتفرعة من اللغة المشتركة ، فضلا عن اللغات الأجنبية التي تتكلمها الأقطار المجاورة (فالعامية الخاصة الفرنسية على وجه العموم تحتوي على كلمات أجنبية قليلة العدد : عربية ، والمانية) وغيرها[42] .

وفي اللهجات الخاصة المصرية ألفاظ مستمدة من لغات أجنبية حسب الطبقة أو الحرفة التي تتطلبها .

4) قد تأخذ اللهجات الخاصة من الكتب وهو أمر فردي في غالب الأحيان ، وهو إحدى الوسائل الاصطناعية التي تدخل في تكوين العامية الخاصة ، ويذكرون أن فرجليوس مارو النحوي الذي عاش — على ما يظهر — في القرن الخامس بعد الميلاد اخترع لغة خاصة ، ظلت شائعة الاستعمال زمنا طويلا بين تلامذة المدارس الايرلندية ، وكانت تقوم هذه اللغة على تشويه الكلمات الجارية ، بأنواع من تضعيف المقاطع ، أو نبرها ، أو نقلها ، ويمضي الزمن تحورت ، وتمخضت عن لغة أخرى أمشاج سميت (لغة الشعراء) وهي عامية خاصة اختلطت فيها — على غير قاعدة — كلمات مستعارة ، من اللاتينية ، والاغريقية ، والعبرية ، وكلمات أهلية ألهمها الاستعمال أو استمدت من النصوص العتيقة[43] .

واللهجات الخاصة لا ينفصل بعضها عن بعض ، انفصالا تاما فللطوائف الاجتماعية صلات تقتضيها المصالح التي تجمعهم فـ«تنوع اللغات (اللهجات) يرجع إلى تعقد الروابط الاجتماعية ، ولما كان من النادر أن يعيش فرد محصورا في مجموعة اجتماعية واحدة ، كان من النادر أيضا أن تبقى إحدى اللغات دون أن تنفذ إلى مجموعات مختلفة ، إذ يحمل كل فرد معه لغة مجموعته ، ويؤثر بلغته على لغة المجموعة المجاورة التي يدخل فيها»[44] .

ولا تتكلم أسرتان متجاورتان لغة واحدة اطلاقا ، ومع هذا فإن لقاء الأسر المشترك يؤدي إلى الوحدة اللغوية بينهما ، وقد يعيش أخوان معا ، ولأحدهما مهنة تختلف عن مهنة الآخر ، فتميل لهجة كل منهما إلى طائفته التي ينتمي إليها ، وتدب عوامل الفرقة بين لسانيهما الا أنهما يتغلبان عليها ، بلقائهما اليومي ، ولو أن أحدهما انفصل عن الآخر في حياته ، أو أدّى حدث ما إلى التفريق بينهما فقد يصبح لكل منهما لهجة تختلف تمام الاختلاف عن الأخرى[45] .

فاللهجات الطائفية تتداخل فيما بينها لعوامل الاتصال القائمة بين أصحابها فإذا قدر لاحدى اللهجات أن تنفصل عن الأخرى — لعوامل تدعو إلى ذلك فإن هذه اللهجة تصبح بعيدة عن أخواتها (ولذلك كانت في فرنسا لهجة الطبقات الدنيا من العمال واللهجات السرية لجماعات المتصوفين ، والرهبان ، ولهجات المجرمين ، واللصوص ، ومن إليهم ، من أكثر اللهجات انحرافا عن الأصل الذي انشعبت عنه ، وبعدا عن المستوى العام لبقية اللهجات الاجتماعية الفرنسية ، وكذلك الشأن في انجلترا ، فلهجات اللصوص ، وقطاع الطرق ، والمجرمين الانجليز من أشد اللهجات بعدا عن اللغة الأصلية ، وعن المستوى العام للهجات الاجتماعية)[46] .

(41) نفسه ص 317 ، 318 .
(42) نفسه ص 318 .
(43) نفسه ص 319 — 321 .
(44) نفسه ص 306 ، 307 .
(45) نفسه ص 307 .
(46) د. وافي : اللغة والمجتمع ص 148 .

وهذه اللهجات الاجتماعية ، لا يتميز بعضها من بعض إلا في المدن الكبرى حيث تتعدد الوظائف ، ويكثر الناس ، وتتنازع الطبقات ، كنيويورك ولندن ، وبغداد — في عصر العباسيين ، والقاهرة — في العصر الحديث . (ويوجد داخل باريس عدد من اللغات (اللهجات) المختلفة ، تسير كلها جنبا إلى جنب ، فلغة الصالونات مثلا ليست لغة الثكنات ، ولغة الأعيان ليست لغة العمال ، وهناك رطانة المحاكم ، والعامية الخاصة التي تتكلم في حواشي المدينة ، وهذه اللغات يختلف بعضها عن بعض إلى حد أنه قد يعرف الانسان احداها دون أن يفهم الأخرى)[47] .

واللهجات الخاصة تنشأ من الانفصال الاجتماعي ، ولكنها تقوم دائما على مادة لغة مشتركة ، وتظل عادة تستمد منها غذاءها[48] .

5 – العرف واللياقة اللغوية :

في كل مجتمع أمور يعاب التصريح بها ، أو التحدث عنها ، أحيانا بين الكبار ، وأخرى بين الصغار ، وما يباح لبعض الكبار في موقف قد لا يباح لهم في موقف آخر .

ولكل من الصغير والكبير ، والرجل والمرأة ، وجماعة الذكور وجماعة الاناث كلام لا يباح للآخر ، ولا يليق به .

وبعض الكلام لا يليق التفوه به في العرف الاجتماعي ، كالشتائم وما يكون لدى بعض الناس من عاهات ، وكل ما هو جارح للاحساس ، والآداب العامة ، ويستعاض في اللغات عن الكلمات الجارحة بأخرى تخفف من حدتها .

ويكره المجتمع التحدث عن بعض الأمور التي يتشاءم منها ، كالموت ، والأمراض الخبيثة ، والجن ، والشياطين ، وجهة اليسار ، والشر ، فيلجأ عند ذكرها إلى التستر والغموض .

ويتحدث الناس في الأمور المتصلة بعالم الغيب بعبارات خاصة جرت العادة باستعمالها .

ويلجأ المجتمع في التعبير عن الأمور الممنوعة ، أو التي تدعو إلى القلق إلى استعارة كلمات من الخارج ، أو إلى المجاز ، أو استبدال كلمة مكان أخرى ، وتشويه بعض الكلمات أحيانا ، وتعديل عناصرها صوتيا .

فكلمة pissoir (مكان البول) في الألمانية أقل منها جرحا للآذان في الفرنسية ، لأن استعارة كلمة من الخارج تخفف من افتضاح الشيء الذي يعبر بها عنه ، فهي تلعب دور الكتابة[49] .

وكلمات (كيانية — تواليت — دورة المياه) — عندنا — حلت محل كلمة (مرحاض) وكأن الاستعارة من اللغات الأجنبية ، أو استبدال كلمة بأخرى تجعلها أكثر مراعاة للياقة .

(وقد عدل الأطباء منذ حين عن استعمال كلمة (عملية) operation التي صيرها الاستعمال قاسية مخوفة ، لا يسمعها المريض حتى يتصور الآلات المرعبة والملابس الملوثة بالدماء ، والجسم وقد طواه الألم طيا ، فكلمة (عملية) ضحية الصور التي تثيرها لذلك يسود الميل إلى الاستعاضة عنها بكلمة intervention (تدخل) لأنها أنضر جدة منها ، وأكثر تحفظا وأشد غموضا ، أيضا ، لا يهلع لسماعها قلب المريض ، والكناية ليست إلا صورة مهذبة متحضرة مما يسمى تحريم المفردات)[50] .

ولما كانت أسماء المثالب والعاهات معرضة للنهي بشكل خاص ، فلا ينبغي أن نندهش حين نرى الجرمانية

(47) فندريس : اللغة ص 306 .
(48) نفسه ص 320 .
(49) نفسه ص 280 .
(50) نفسه ص 281 .

تشتق من أصل واحد ، يدل على عاهة جسمانية ثلاث كلمات مختلفة (تدل على الصمم ، والبكم ، والحماقة) وذلك بتعديل عناصره الصوتية[51] .

(وترى الشتائم في كثير من اللغات ، تصاب بشيء من التشوه ، المقصود ، الذي يمكن من ادخالها في أرقى الأوساط)[52] .

ونحن نقول في عاميتنا : (يا نهار أحوس — يا خراشي — يخيشك) بدلا من (يا نهار أسود — يا خرابي — يخيبك) كل ذلك للتخفيف من حدتها .

أما موضوعات التشاؤم كالموت ، والخوف من الجن ، والأمراض الخبيثة فنلاحظ المجاز ، والكناية عنها ، واستعمال عبارات تشير إلى الخوف أو تقلب معناها إلى ما يتمنى من الخير .

فالموت — في أكثر اللغات — يكنى عنه بالذهاب ، وفي العربية تستعمل لفظة (الوفاة) وهي مشتقة من (الوفاء) أي رد ما يستحق الآخرون عند الانسان ويعبر عنه بعبارات كثيرة مثل : أفلت شمسه ، صعد إلى بارئه[53] ، لبّى داعي ربه .

ويكنى عن الحصبة في العامية المصرية بـ(المبروكة) .

ويعرض الناس — عادة — عن ذكر الأمراض الخبيثة ، كالسل والسرطان ويدخلون في كلامهم عبارات لازالة مفهومها القاسي مثل : ربنا يكفينا شره — والعياذ بالله — الخ ويستعيذون بالله من الأرواح الشريرة[54] .

وجهة اليسار جهة يتشاءم منها ، وكأنها جهة القوى الخفية ، التي لا يراد ايقاظها (لذلك كثيرا ما قضي بالتحريم على اسم اليسار ، وكانت نتيجة هذا التحريم الاضطرار إلى استعمال العبارات الملفوفة ، والاستعارات للتعبير عن اليسار)[55] .

وهناك الأمور الغيبية ، والعالم غير المنظور الذي يقتضي عبارات خاصة (فالرقي السحرية التي نعثر عليها في قبور اليونان ، وايطاليا ، وافريقية مكتوبة على ألواح من الرصاص ، تطبق في غالب الأحيان ، هذه الخطط نفسها : استعمال الكلمات الأجنبية ، أو تشويه الكلمات الأهلية ، ولكن الباعث هنا يختلف ، إذ يبغون من وراء ذلك الاتصال بالعالم الآخر ، ومن ثم يدخلون في تحرير النص اعتبارات لا صلة لها باللغة[56] .

---

(51) نفسه ص 282 .
(52) نفسه
(53) جسبرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص 184 ، 185 ، وانظر : فندريس : اللغة ص 28 ، ود. السعران : اللغة والمجتمع ص 130 .
(54) د. السعران : اللغة والمجتمع ص 131 .
(55) فندريس : اللغة ص 281 .
(56) نفسه ص 321 ، وانظر أيضا ص 322 — 325 .